الحجاج البلاغي وآلياته في نقد العقل المعتزلي
المقامة المارستانية لبديع الزمان نموذجًا

د/ أحمد راشد إبراهيم راشد
المدرس بقسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن
كلية دار العلوم/ جامعة المنيا

ملخص البحث: يسعى هذا البحث إلى الكشف عن قدرة الحجاج البلاغي على نقد آراء العقل المعتزلي نقدًا فاحصًا، بواسطة إقناع المتلقي والتأثير فيه بالحجج البلاغية والأدلة النقلية والعقلية، وذلك من خلال آليات الحجاج التي وظفها بديع الزمان الهمذاني في مقامته المارستانية لنقد العقل المعتزلي في بعض المسائل التي تضمنتها هذه المقامة.

هذا، وقد أشارت الدراسة إلى أنه يمكن تعريف الحجاج البلاغي بأنه " الحوار القائم على استخدام الأدلة العقلية والنقلية واللغوية بين المتحاجَّيْنِ، بتوظيف آليات البلاغة المختلفة؛ لإثبات الحقيقة التي يريد المُحاجُّ إثباتها؛ بغية الإبانة والإقناع والتأثير في المتلقي"، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فقد بينت الدراسة أن للحجاج البلاغي في المقامة المارستانية آليات عديدة ـ طبقا لما فرضته القراءة التحليلية للمقامة ـ منها ما أشار إليه التراثيون في كتاباتهم ومنها ما أشارت إليه الدراسات الحديثة، وقد تمثلت هذه الآليات في أربعة أشياء هي: الحوار السردي، والوصف، والجمع بين المذهب الكلامي والاقتباس، والاكتفاء بالاقتباس لإقامة الحجة على المتكلمين.

الكلمات المفتاحية: الحجاج البلاغي، المقامة المارستانية، بديع الزمان الهمذاني

Rhetorical Argument and its Mechanisms in Criticizing the Mu`tazali Mentality
The Maristani Maqamah by Badee` Az-Zaman as a sample

Abstract

This research aims to uncover the ability of rhetorical argument to criticize the views of the Mu`tazali mentality thoroughly. To do this, it persuades and influences the recipient through rhetoric proofs, mental and textual evidence. To do this, it uses mechanisms of arguments employed by Badee` Az-Zaman Al-Hamadhani in his Maristani Maqamah for the criticism of the Mu`tazali mentality in some topics included in this Maqamah.

Additionally, this study indicated that rhetoric argument can be defined as the debate based on the use of mental, textual, and linguistic proofs by two debaters. So,

they employed the different mechanisms of rhetoric to prove the truth which the debater wants to prove for the purpose of clarity, persuasion, and having influence on the recipient.

On the other hand, the study clarified that the rhetoric argument has many mechanisms in the Maristani Maqamah according to the analytical reading of the Maqamah. Some of them are mentioned by the heritage advocates in their writings and some are mentioned by modern studies. These mechanisms are embodied in four things: narration, description, and combination of the mental and textual deduction or combination of the Kalam Madhhab and quotation, and dependence only on the textual evidence/quotation to establish evidence against Al-Mutakillimin.

المقدمة

كادت المقامة النثرية العربية تحظى بالمكانة التي نالتها القصيدة الشعرية، فقد دوَّنت حياة العرب سياسيا واجتماعيا ودينيا في عصورهم المختلفة، كما هو الحال بالنسبة للقصيدة، وهذا من ناحية المضمون، أما من ناحية الشكل فقد التزمت المقامة الألوان البديعية المعنوية واللفظية خاصة السجع والجناس، في مقابل التزام القصيدة بالوزن والقافية والدلالة على المعنى، وهذا تلاقٍ من ناحية الشكل.

ومما هيأ للمقامات هذه المكانة ميول البلاغيين والكُتَّاب العبَّاسيين إلى ألوان البديع والزخارف اللفظية، في الوقت الذي انتشر فيه التصنع الشعري عند أصحاب مدرسة الصنعة، هذا إضافة إلى كون المقامات ذات غايات تعليمية في المقام الأول فكانت تصاغ بطريقة بديعية ليسهل حفظها على متلقيها، كما هو الحال في الأشعار التعليمية التي صاغها النحاة والأدباء والفقهاء والفلاسفة كلٌّ في تخصصه.

وعلى الرغم من اختلاف الأقوال حول نشأة المقامات وتأسيسها في الأدب العربي إلا أنها قد أخذت صورتها المعتمدة وتشكلت عناصر بنائها على يد بديع الزمان الهمذاني ومن بعده الحريري، فصارت تُنسب إلى الهمذاني على أكثر الأقوال.

وقد أبدع الهمذاني بديع الزمان نيِّفا وخمسين مقامة أوردها شرَّاح مقاماته، منها ما هو وعظي، وما هو نقدي، وما هو أدبي، وما هو عقدي مذهبي، كالمقامة المارستانية التي تُعدُّ نموذجا قصصيا سرديا فريدا أبدعه الهمذاني ـ من بين ما أبدعه من مقامات ـ في حلية معنوية ولفظية للرد على أقوال المعتزلة وآرائهم العقدية، ولهذا فقد وقع الاختيار عليها باعتبارها نموذجا ذا حجاجية بلاغية كثيفة يمكننا من خلالها بيان آليات الحجاج البلاغية في نقد آراء العقل المعتزلي وكيفية توظيفها في الرد عليهم.

هذا، وقد شكَّل الحجاج في هذه المقامة وغيرها من النصوص الأدبية في الآداب العربية واليونانية مبحثا من المباحث التي اهتمت بها دراسات البلاغيين والنقاد ابتداء بأرسطو في كتابيه الخطابة والشعر، ومن بعده البلاغيون العرب بوجه عام، ذلك؛ لأن البلاغة حجاج في المقام الأول لأنها تسعى إلى إقناع المتلقي والتأثير فيه، وانتهاء بالبلاغيين الجدد كبيرلمان وتيتيكا في حجاجهم البلاغي، وإن كانوا قد نحوا فيه منحى منطقيا رياضيا تبعا لاختصاصاتهم العلمية كالفيزياء والمنطق.

وتبعا لما ذكرناه، وباستخدام المنهجين التحليلي والفني، فإننا سنقدم بين يدي الدراسة تعريفا للمقامة وعناصر بنائها، ثم نتبعها ببيان موجز عن مفهوم الحجاج البلاغي وقيمته بين التراث اليوناني والعربي، وبعد ذلك نورد نص المقامة المارستانية، ثم نتبعها بآليات الحجاج البلاغي وبيان أوجه حجاجيتها في الرد على آراء المعتزلة التي وردت في نص المارستانية.

ـ المقامة مفهومها وعناصر بنائها

وردت الدلالة اللغوية للمقامة في الشعر الجاهلي بمعنيين مختلفين" فتارة تستعمل بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها، وتارة تستعمل بمعنى الجماعة التي يضمها هذا المجلس أو النادي، أما في العصر الإسلامي فصارت تعني المحاضرة أو حديث الشخص في المجلس سواء أكان قائما أم جالسا"(١)، وبهذا المعنى الذي آلت إليه في العصر الإسلامي استخدمها بديع الزمان الهمذاني في مقاماته، فقد كان يختم بها محاضراته ودروسه التي يلقيها على طلابه الحاضرين.

أما المقامة بدلالتها الاصطلاحية الأدبية فهي " نوع من الأدب يقوم على كونه قصة صغيرة من إبداع الخيال، أو من تصوير الواقع وتحوير بما يرتضيه الخيال، مكتوبة بأسلوب أنيق الجمل والألفاظ، تنتهي فقراتها ـ على الأغلب ـ إلى سجع لطيف، وهي في مجموع ما فيها ترمي إلى جمع شوارد اللغة وفِصَحِها وعيون مفرداتها وتراكيبها، وتدور حول بطل للقصة، وراوية قد يكون بطلا في بعض الأحيان، ولا تكاد تخلو من نادرة أو مفاجأةٍ أو غرابة أو كياسة أو توقد في فكر البطل أو الراوية، أو طرفة من الطرف اللطيفة، ..."(٢)، و" قد أطلقت على ما يحكى في جلسة من الجلسات على شكل قصة تحتوي غالبا على مخاطرات يرويها راوٍ عن بطل يقوم بهذه المخاطرات. وقد يكون هذا البطل شجاعا.... وقد يكون ناقدا اجتماعيا أو سياسيا، وقد

(١) المقامة، د/شوقي ضيف، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر ، ١٩٥٤م، ص٧.

(٢) فن القصة والمقامة، د/ محمد جميل سلطان، منشورات جمعية التمدن الإسلامي، مطبعة الترقي، ١٣٦٢ هـ، ١٩٤٣م، ص١٥، ١٦.

يكون فقيها متضلعا في مسائل الدين و في مسائل اللغة" (١)، وهي كذلك" حكاية قصيرة خيالية بطلها شخصية مجهولة تتصف بالاحتيال، أما أحداثها فتقوم على واقعة طريفة، وتساق بأسلوب فني موشح بالبيان ومضمخ بالبديع" (٢)وقد أرسى دعائمها الفنية بديع الزمان الهمذاني في القرن الرابع الهجري الذي يعد أزهى عصور الأدب العربي إنتاجا وإبداعا، وقد أريد بهذه المقامة في الأصل التعليم، ولهذا سمَّاها الهمذاني مقامة ولم يسمِّها حكاية ولا قصة(٣)، وذلك باعتبار ما أشرنا إليه في الدلالة اللغوية للمقامة.

ـ عناصر بنائها وخصائصها الفنية

نخلص من التعريفات السابقة للمقامة إلى أنها تبنى على مجموعة من العناصر، وعناصر بنائها(٤) :

١ـ مؤلف واعٍ يحل محل المتلقي ويشركنا في عمله الأدبي ويحدثنا بما أبدعه خياله، وبما يتصف به الراوية والبطل من خير أو شر.

٢ـ راوية بليغ يقص أخبار البطل بأسلوب يدل على معرفته وعلمه وحكمته، وهو راوٍ واحد في المقامات كلها وهو عيسى بن هشام.

٣ـ بطل يُعزى إليه ما في القصة من حكمة وعلم وبيان وحيلة، وهو أبو الفتح الإسكندري، ونادرا ما يغيب عن البطولة ويخلفه سواه كما في بعض المقامات، وهو يمثل مجموعة من الأدباء الذين جمعوا تراث الجاهلية والإسلام، ويمتاز بفصاحة اللسان وقوة البيان وحِدَّة الذهن، ودليل هذا ما نراه في المارستانية من قدرته العجيبة فهو" يزيف آراء المتكلمة، ويحمل على منطقهم، ويرميهم بالزندقة والكفر، والتضليل والفساد"(٥).

٤ـ القصة ومكانها وزمانها، وقد يذكر أحدهما ويترك الآخر، وتدور هذه القصة حول موضوعات عديدة؛ كالمدح، والوعظ الديني، والتعليم، والنقد الأدبي، وغيرها من الموضوعات،

---

(١) النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، الطبعة التاسعة، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٠م، ص٤٩١.

(٢) تصدي الهمذاني للخطاب الاعتزالي قراءة في مسألة الجبر والاختيار، أ.د/ رشيد حليم، بحث منشور بمجلة الباحث / العدد ١٧، ص١٩٩.

(٣) المقامة، ص٨.

(٤) ينظر في هذا: فن القصة والمقامة، ص ٢٣ ـ ٢٧، وتصدي بديع الزمان، ص٢٠٠.

(٥) فن القصة والمقامة، ص٢٧.

وجميع هذه الموضوعات كانت ديوانا نقل إلينا البديع من خلاله صورة كاملة عن الحياة العربية والبيئة الإسلامية في عصره، وأبرز فيه توجهاتهم وآراءهم الفكرية والمذهبية.

ـ مفهوم الحجاج بين اللغة والاصطلاح البلاغي

تدور الدلالة اللغوية لمادة (حجج) حول أربعة معان ترجع كلها إلى "القَصْد"(١)؛ فكل من المتحاجَّيْنِ يقصد إلى غلبة خصمة والانتصار لنفسه، كذلك فإن أصل مادة (حجج) "موزع بين ثلاثة فروع: الأول المُحاجُّ الحجيج: وهو صاحب الغلبة في الحجاج، والثاني المُحاجُّ المحجوج وهو المغلوب، والثالث الحُجج التي تدور على ألسنة كل من المتناظرين"(٢)، وعلى هذا نقول عند وقوع الحجاج لقد حاجَّ فلان فلانا فهو حجيج والآخر محجوج.

والحجاج اصطلاحا " هو تقديم مجموعة من الحجج والأدلة التي تخدم نتيجة معينة" (٣)، وهذه الدلالة إنما هي دلالة اصطلاحية عامة يمكن تخصيصها بالعلم أو الفن الذي يحتويها، ولم تخلُ كتب التراث من الإشارة إليها(٤) ، خاصة ما يتعلق منها بالعلوم ذات الطابع

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ٢٩/٢ ـ ٣١، وانظر: لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٤، ص٢٢٨. وقد ذكر ابن فارس أن الحاء والجيم أصول أربعة" أولها القصد، وثانيها الحِجَّة وهي السَّنَة، وثالثها الحَجاج وهو العظم المستدير حول العين، ورابعها الحَجْحَجة وهي النكوص" وجميع هذه الأصول ترجع إلى القصد والغلبة والظَّفَر.

(٢) مفهوم الحجاج في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، د/ لمهابة محفوظ ميارة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد٨١، الجزء ٣، ص٥٠٧.

(٣) حوار حول الحجاج، د/أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص٢٩. وثمة مجموعة من التعريفات للحجاج اصطلاحا وفي هذا يُنظر: الحجاج في اللغة والبلاغة"ديكرو وبيرلمان أنموذجًا"، د/ أبو بكر العزاوي، مجلة فصول، المجلد(١/٢٦)، العدد (١٠١)، خريف ٢٠١٧، ص٤٠٠.

(٤) تعددت التعريفات المتعلقة بالحجاج فمنها ما هو تراثي ومنها ما هو معاصر ومن بين المؤلفات التي عرَّفته ما يلي: التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٠، ص٨٦. كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد الباجي، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، دار صادر، بيروت ط٣، ٢٠٠١، ص٨. المعجم

الفكري الفلسفي، وكتب اللغة والبلاغة والفقه والأصول، فقد أخذ الحجاج في كل منها تعريفه الذي يناسب الفن أو العلم الذي يندرج تحته كالحجاج الفلسفي الجدلي، واللغوي، والبلاغي، إلا أنها ـ أي الدلالة الاصطلاحية للحجاج في العلوم المختلفة ـ ارتبطت بمجموعة من المصطلحات الأخرى كالجدل والمناظرة والمحاورة والمخاصمة ، وإن كان بعض من استخدموا هذا الألفاظ قد قاربوا بينها حتى جعلوها من المترادفات.

وقد كان للبلاغة شأنها باعتبارها وسيلة من وسائل التأثير والإقناع عند جميع الأمم، وهذا ما ذكره أرسطو عن الخطابة اليونانية والريطوريقا، وكذلك ذكره البلاغيون العرب في كتبهم ومصنفاتهم، وبهذا فقد كانت البلاغة مجالا رحبا لعمل الحجاج، حيث إنها تملك من الآليات الأسلوبية والبيانية والبديعية ما يستطيع بواسطته المُحاجُّ إثبات حجته وبيان بطلان الدعوى التي يأتي بها خصمه.

وعليه فيمكن تعريف الحجاج البلاغي بأنه " الحوار القائم على استخدام الأدلة العقلية والنقلية واللغوية بين المتحاجَّيْنِ، بتوظيف آليات البلاغة المختلفة؛ لإثبات الحقيقة التي يريد المُحاجُّ إثباتها؛ بغية الإبانة والإقناع والتأثير في المتلقي"، علمًا بأن " الحجاج في طابعه العام ينبني على طرح الدعوى والدعوى المضادة، واستعراض الحجج والأدلة والأمثلة لإفحام الخصم بغية الوصول إلى نتيجة قد يقتنع بها المتلقي أو لا يقتنع"(١)، وهذا ما نراه في أنواع الحجاج كلها فلسفية كانت أم بلاغية أم لغوية ....إلخ.

ـ الحجاج البلاغي وقيمته بين التراث اليوناني والعربي

ظهر الحجاج البلاغي بداية بصورته الكلاسيكية مع السوفسطائيين اليونانيين، فقد " فقد اهتموا ببنية كل من الكلمة والجملة، وبحثوا في السبل الممكنة التي بها يتحقق الإقناع وتغيير مواقف الآخرين، وقد استعانوا في سبيل تلك الغاية بخبرة بالغة في مقامات الناس والقول معا، وأيضا بآليات إجراء اللغة بحسب المقاصد والظروف التواصلية مما حتَّم على محاوريهم التوسل

الفلسفي، مجمع اللغة العربية، مصر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٤٠٣، ١٩٨٣، ص٦٧.

(١) من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، د/ جميل حمداوي، د.ط، أفريقيا الشرق، المغرب، ص١٠.

بمناهج حجاجية مختلفة"(١)، هذا وقد كان المسعى الحقيقي للسوفسطائيين من حجاجهم البلاغي" موجها نحو الحصول على السلطة في المجتمع، ولذلك كانت ممارستهم للإقناع تعتمد على المغالطة"(٢)، ولهذا فسنرى عند معارضي السوفسطائيين وعلى رأسهم أفلاطون معارضة شديدة لمنهجهم الحجاجي المغالطي، ولم تكن معارضة أفلاطون معارضة للحجاج نفسه.

لقد انتقد أفلاطون ما قدمه الحجاج السوفسطائي من ناحية، وسعى إلى بناء "وتأسيس خطابة وحجاج بديلين يهتمان بالدرجة الأول بمحتوى القول لا بشكله، ولا يبتعدان عن الحقيقة ولا ينساقان وراء الاستهواء والمغالطات"(٣)، وقد كان هذا من أفلاطون؛ لأن مسعاه كان أخلاقيا فلسفيا، فلعله كان يميل إلى الحجاج الجدلي وليس البلاغي، وإلا فالناظر في أدبيات أفلاطون يرى فيها نماذج أدبية يونانية وقد عُرفت بمحاوراته الأدبية وقد مرت بثلاث مراحل ولعل كتابه "الجمهورية" شاهد من الشواهد على المرحلة المتوسطة من المحاورات(٤)، فإذا "كان أفلاطون فيلسوفا عقلانيا برهانيا، إلا أنه قد وظف الجدل التوليدي، مثل أستاذه سقراط، كما يظهر ذلك جليا في مجموعة من محاوراته الفلسفية ، مثل: محاورة جورجياس ومحاورة فيدر "(٥) وهذا ما يعني أن أفلاطون لم يترك الحجاج السوفسطائي إلا لغرض أخلاقي، ولهذا اتجه إلى الحجاج الجدلي تاركا السوفسطائي المغالطي.

ولعل الجدل الذي وضعه أفلاطون قد لقي حظه من القبول فيما نراه من تراث المعتزلة والفرق الكلامية التي قدَّمت العقل على النقل/ النص، ولم تجمع بينهما، وخير شاهد على هذا ظهور علم الكلام القائم على الجدل والمناظرة في مسائل التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي هي الأصول الخمسة التي بنت عليها فرقة المعتزلة الدين، ويشهد لهذا ما ذكره ابن خلدون في تعريفه علم الكلام حيث يقول عنه : إنه

---

(١) الآليات الحجاجية البلاغية في رباعيات عمر الخيام، رسالة ماجستير إعداد أسماء يسعد ولامية مقرع، قسم اللغة والأدب العرب، كلية الآداب واللغات، جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي، الجزائر، ص٣١.

(٢) الحجاج في الخطابة، عبد الواحد بن السيد، مجلة فصول، المجلد(١/٢٦) العدد(١٠١) خريف ٢٠١٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ص٦٤٨. والمقصود بالمغالطة وجود تعصب في رأي صاحب الحجة فتكون عنده أخطاء في مقدماته وبالتالي يقع الخطأ في الاستنتاج.

(٣) السابق، ص ٦٤٩.

(٤) النقد الأدبي عند الإغريق والرومان، د/ عبد المعطي شعراوي، د.ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٨٠: ٨٢ بتصرف.

(٥) من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص١٥– ١٦.

" العلم الذي يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة"(١)، وما ذكره ابن خلدون في هذا التعريف هو ما سنلحظه بصورة واضحة في هذا البحث وفي الحجاج البلاغي الذي توسَّل به بديع الزمان في مقامته المارستانية للرد على مسائل العقل الاعتزالية.

ويأتي أرسطو بمؤلفاته المحفورة في ذاكرة البلاغيين والنقاد والتي كانت منهلا لكثير منهم وقت ظهورها، وها هي قد أُعيد بريقها في عصرنا الحديث مع ظهور البلاغة الجديدة أو بلاغة الحجاج على يد البلاغيين الجدد.

لقد أرسى أرسطو قواعد راسخة وقوانين ثابتة للخطابة والشعر، ويبدو هذا واضحا فيما ذكره الفارابي قائلا " إن أرسطو جعل أجزاء المنطق ثمانية كل جزء منها في كتاب: .... والسابع: في القوانين التي يُمتحن بها الأقاويل الخطبية وأصناف الخطب..... وهذا الكتاب يسمى باليونانية الريطورية وهي الخطابة. والثامن: في القوانين التي يشير بها الأشعار وأصناف الأقاويل الشعرية....وهذا الكتاب يسمى باليونانية بويطيقا وهو كتاب الشعر."(٢)، وهذان الكتابان باشتمالهما على قوانين الخطابة والشعر قد احتويا آليات الحجاج البلاغي للخطابة والشعر معا.

وعن طريقة تناوله للحجاج فإنه قد تناوله من ناحيتين أو زاويتين" زاوية بلاغية وأخرى جدلية، فمن الزاوية البلاغية يربط الحجاج بالجوانب المتعلقة بالإقناع، ومن الزاوية الجدلية يعتبر الحجاج عملية تفكير، تتم في بنية حوارية، تنطلق من الجدلية"(٣)، وهذا الجمع بين الجدلي والبلاغي يكون أقوى في التأثير على المتلقي وإقناعه، ذلك لأنه يملك الحجج العقلية واللفظ البلاغي المؤثر في النفس.

هذا، وقد كان الدافع لأرسطو إلى الاهتمام بالبلاغة والبلغاء والدفاع عنهما حبه للحكمة، ولأنه يرى أن "الحكمة أشرف الأشياء فينبغي أن تكون العبارة عنها بأحكم المنطق وأفصح اللهجة وأوجز اللفظ الأبعد عن الدخل والزلل وسماجة المنطق وقبح اللكنة

(١) تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، الجزء الأول، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بنان، ص٤٨٥.

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة(ت٦٦٨ه)، تحقيق د/ نزار رضا، د.ط، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٨٦: ١٠٥.

(٣) الآليات الحجاجية، ص٣١.

والعي....."[(١)]، ومن هذا يتبين لنا أن الحجاج بوسائل وآليات البلاغة إنما هو وسيلة من وسائل حفظ الحكمة/ الفلسفة وصيانتها عما يدنسها كما يرى أرسطو.

هذا، وقد انتبه البلاغيون العرب قديما وحديثا إلى أهمية الحجاج البلاغي في مصنفاتهم، وإن كانوا لم يفردوه بباب معين من أبواب البلاغة، إلا أننا نرى أن كثيرا من المباحث التي أوردها المتقدمون في علوم البلاغة تمثِّل آليات حجاجية في كثير من النصوص، كالنصوص القرآنية والنبوية والنثرية والشعرية، وذلك باعتبارها وسائل لإقناع المتلقي والتأثير فيه، أما أصحاب البلاغة الجديدة والدرس التداولي فقد أوْلَوا الحجاج بأنواعه المختلفة مكانة عظيمة في الدرس البلاغي الحديث، غير أنهم قد اعتمدوا بصورة كبيرة على ما قدمه أصحاب النظرية الحجاجية الغربية، كشاييم بيرلمان في حجاجه البلاغي، وأزفالد ديكرو الفرنسي في حجاجه اللغوي ـ ووظفوها في مجالات علمية ومعرفية وثقافية مختلفة كاللسانيات والبلاغة والأدب والفلسفة وتحليل الخطاب والإعلام والقانون والسياسة وعلم النفس ـ، والمنطقي المنسوب إلى عالم الرياضيات والمنطق السويسري جان بليزغريز رائد المنطق الطبيعي، والجدلي التداولي المرتبط بالمدرسة الهولندية ورائدها فان إيميرين.

وإذا كان الثابت أمامنا أن الحجاج البلاغي الأرسطي كان يهدف إلى حفظ الحكمة/ الفلسفة وصيانتها عما يدنسها، فكذلك الأمر عند بديع الزمان والبلاغيين العرب فإنهم يرون في الحجاج البلاغي وسيلة لصيانة العقائد الدينية، وهذا ما سنراه في هذه الدراسة.

نص المقامة

المَقَامَةُ المَارِسْتَانِيَّةُ

حَدَّثَنا عِيسِى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: دَخَلْتُ مَارسْتانَ البَصْرَةِ وَمَعِي أَبُو داوُدَ المُتَكَلِّمُ[(٢)]، فَنَظَرْتُ إِلَى مَجْنُونٍ تَأْخُذُنِي عَيْنُهُ وَتَدَعُنِي فَقالَ: إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ فَأَنْتُمْ غُرَباءُ، فَقُلْنَا: كَذلِكَ، فَقَالَ: مَنِ القَوْمُ للهِ أَبُوهُمْ؟ فَقُلْتُ: أَنَا عِيسَى ابْنُ هِشامٍ وَهَذَا أَبُو دَاوْدَ المُتَكَلِّمُ فَقالَ: العَسْكَرِيُّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ،

(١) السابق، ص٨٩.
(٢) هو أحد أصحاب واصل بن عطاء المعتزلي، وسيفند المجنون مقالاتهم كما سيأتي.

فَقَالَ: شَاهَتِ الوُجُوهُ وَأَهْلُهَا إِنَّ الخَيْرَةَ للهِ لا لِعَبْدِهِ(١)، وَالأُمُورَ بِيَدِ اللهِ لا بِيَدِهِ، وَأَنْتُمْ يا مَجُوسَ هذِهِ الأُمَّةِ(٢) تَعِيشُونَ جَبْراً(٣)، وَتَمُوتُونَ صَبْراً وَتُسَاقُونَ إِلى المَقْدُورِ قَهْراً، وَلَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذينَ كُتِبَ عَلَيْهِم القَتْلُ إِلى مَضَاجِعِهِمْ، أَفَلا تُنْصِفُونَ، إِنْ كَانَ الأَمْرُ كَمَا تَصِفُونَ؟ وَتَقُولونَ: خالِقُ الظُّلْمِ ظَالِمٌ!(٤) أَفَلا تَقُولُونَ: خَالِقُ الهُلْكَ هَالِكٌ؟ أَتَعْلَمُونَ يَقِيناً، أَنَّكُمْ أَخْبَثُ مِنْ إِبْلِيسَ دِيناً؟ قَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي، فَأَقَرَّ وَأَنْكَرْتُمْ وَآمَنَ وَكَفَرْتُمْ، وَتَقُولونَ: خُيِّرَ فَاخْتَارَ، وَكَلاَّ فَإِنَّ المُخْتارَ لاَ يُبْعَجُ(٥) بَطْنَهُ، وَلاَ يَفْقَأُ(٦) عَيْنُهُ وَلا يَرْمِى مِنْ حالِقِ(٧) ابْنَهُ، فَهَلِ الإِكْرَاهُ إِلاَّ مَا تَرَاهُ؟ وَالإِكْرَاهُ مَرَّةً بِالمَرَّةِ(٨) وَمَرَّةً بِالدِّرَّةِ(٩). فَلْيُخْزِكُمْ أَنَّ القُرْآنَ بَغِيضُكُمْ، وَأَنَّ الحَديثَ يَغِيظُكُمْ، إِذَا سَمِعْتُمْ: " مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ " أَلْحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا " جَحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَقْطِفَ ثِمَارَهَا، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ حَتَّى اتَّقَيْتُ حَرَّهَا بِيَدِي " أَنْغَضْتُمْ(١٠) رُؤُوسَكُمْ وَلَوَيْتُمْ أَعْنَاقَكُمْ وَإِنْ قِيلَ: " عَذابُ القَبْرِ " تَطَيَّرْتُم، وَإِنْ قيلَ: " الصِّراطُ " تَغَامَزْتُمْ وَإِنْ ذُكِرَ المِيزَانُ قُلْتُمْ: مِنَ الفِرْغِ(١١) كِفَّتَاهُ، وَإِنْ ذُكِرَ الكِتابُ قُلْتُمْ: مِنَ القِدِّ(١٢) دَقَّتَاهُ، يَا أَعْدَاءَ الكِتابِ وَالحَديثِ، بِماذَا تَطَيَّرُونَ؟ أَباللهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ تَسْتَهْزِئُونَ؟. إِنَّما مَرَقتْ مَارِقَةُ فَكَانُوا خَبَثَ الحَديثِ، ثُمَّ مَرَقْتُمْ مِنْها فَأَنْتُمْ خَبَثُ الخَبِيثِ، يَا

(١) اعتراض على قول المعتزلة إن العبد خالق لأفعاله خيرها وشرها.
(٢) إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم القدرية مجوس هذه الأمة ، وهم المنكرون للقدر.
(٣) احتجاج عليهم بأنهم ولدوا بغير اختيارهم ويموتون رغما عنهم فكيف يكونون مخيرين؟
(٤) يعتقد المعتزلة أن الرب تعالى منزه عن أن يضاف إليه شر وظلم، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما فلو صح ذلك لوجب أن يكون هالكا لأنه خالق الهلاك.
(٥) يشق.
(٦) يقلع..
(٧) المكان المرتفع.
(٨) بالكسر القوة والعقل.
(٩) السوط.
(١٠) النغض تحريك الرأس
(١١) بالكسر الفراغ
(١٢) القِدُّ الجِلْد وهو إشارة إلى اعتقادهم أن القرآن حادث مخلوق مثل الحوادث والمخلوقات.

مَخَابِيثَ(١) الخَوارِجِ، تَرَوْنَ رَأْيَهُمْ إلاَّ القِتَالَ! وَأَنْتَ يا ابْنَ هِشامٍ تُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُ بِبَعْضٍ؟ سَمِعْتُ أَنَّكَ افْتَرَشْتَ مِنهُمْ شَيْطَانَةً(٢)! أَلَمْ يَنْهَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَتَّخِذَ مِنْهُمْ بِطَانَةً؟. وَيْلَكَ هَلاَّ تَخَيَّرْتَ لِنُطْفَتِكَ، وَنَظَرْتَ لِعَقِبِكَ؟ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَبدِلني بِهؤُلاءِ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَشْهِدْنِي مَلائِكَتَكَ.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَبَقِيتُ وَبَقِي أَبُو دَاوُدَ لا نُحِيرُ جَوَاباً، وَرَجَعْنَا عَنْهُ بِشَرٍ وإِنِّي لأَعْرِفُ فِي أَبي دَاوُدَ انْكِسَاراً، حَتَّى إِذَا أَرَدْنَا الافْتِراقَ قَالَ: ياعِيسَى هَذا وَأَبِيكَ الحَدِيثُ، فَمَا الَّذي أَرَادَ بِالشَّيْطَانَةِ؟ قُلْتُ: لاَ واللهِ مَا أَدْرِي، غَيْرَ أَنِّي هَمَمْتُ أَنْ أَخْطُبَ إِليَّ أَحَدِهِمْ وَلَمْ أُحَدِّثْ بِما هَمَمْتُ بِهِ أَحَداً، وَاللهِ لا أَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَداً، فَقَالَ: مَا هَذا وَاللهِ إلاَّ شَيْطَانٌ فِي أَشْطَانٍ(٣)، فَرَجِعْنَا إِلَيْهِ، وَوَقَفْنَا عَلَيْهِ، فَابْتَدَرَ بِالْمَقَالِ، وَبَدأْنَا بِالسُّؤَالِ، فَقالَ: لَعَلَّكُمَا آثَرْتُمَا، أَنْ تَعْرِفَا مِنْ أَمْرِي ما أَنْكَرْتُمَا، فَقُلْنَا: كُنْتَ مِنْ قَبْلُ مُطَّلِعاً على أُمُورِنَا، وَلَمْ تَعْدُ الآنَ مَا في صُدُورِنَا، فَفَسِّرْ لَنَا أَمْرَكَ، وَاكْشِفْ لَنَا سِرَّكَ، فَقالَ:

أَنَا يَنْبُوعُ العَجَائِبْ ... فِي احْتِيَالِي ذُو مَرَاتِبْ
أَنَا فِي الحَقِّ سَنَامٌ ... أَنَا في البَاطِلِ غَارِبْ(٤)
أَنَا إِسْكَنْـــدَرُ دَارِي ... فِي بِــلادِ اللهِ سَارِبْ(٥)
أَغْتَــدِي فِي الدَّيْرِ قِسِّيساً.. وَفِي المَسْجِدِ رَاهِبْ.

آليات الحجاج البلاغي في المقامة

تمثل المقامة المارستانية عينا من عيون النثر العربي في الرد على مذهب المعتزلة العقدي بصورة أدبية عبقرية، حيث إن صاحبها الهمذاني قد وظف آليات بلاغية عديدة تجمع بين جمال اللفظ وصحة المعنى، بل إننا بحق يمكننا أن نقول إن المقامة المارستانية الهمذانية

(١) جمع مخناث وهو الرجل فيه تكسر يشبه النساء.
(٢) إشارة إلى أنه اتخذ زوجة منهم.
(٣) جمع شَطَن وهي الحبال.
(٤) الغارب :الكاهل
(٥) السارب المتنقل في الأرض.

تزخر بحمولات بلاغية عديدة، منها ما قد أفصح عنه التراثيون في كتاباتهم، ومنها ما يمكن تصنيفه في إطار البلاغة الجديدة والدراسات المعاصرة.

لقد بنى الهمذاني مقامته بناء حجاجيا دقيقا، ووظف لخدمته مجموعة من الآليات التي يمكننا بيانها على النحو التالي:

أولًا: الحوار السردي

سبقت الإشارة إلى أن الحجاج البلاغي "حوار مبني على الأدلة"، وهذا يشير إلى أن كل حجاج يعد حوارا ولا يعد كل حوار حجاجا، وعليه فالحوار آلية من آليات الحجاج، ويتسم هذا الحوار بالسمة التي ينتمي إليها الحجاج الذي يحتويه، فإن كان الحجاج جدليا فلسفيا فالحوار له الوصف نفسه، وإن كان الحجاج بلاغيا فالسمة المسيطرة على الحوار هي البلاغة وآلياتها اللفظية والمعنوية.

وفي المقامة المارستانية نرى الحوار يتصف بكونه بلاغيا سرديا، أما صفة البلاغة فلكون الحجاج الذي يشتمل على هذا الحوار بلاغيا ، وأما صفة السرد فهي تابعة لجنس المقامة وهي القصة المبنية على الرواية والسرد في الأصل، هذا من ناحية وصف الحوار بأنه سردي، وعليه فيمكن القول بأن "الحوار السردي هو الحوار الذي يقوم السارد بروايته على المتلقي بغية سرد الأحداث والوقائع ورسم الشخصيات"، وهذا ما سنراه هنا.

والحوار " تقنية قصصية يعتمد عليها الشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرحية ؛ لتصوير الشخصيات ودفع العمل إلى الأمام"(١)، وهو كذلك " محادثة بين طرفين أو أكثر، تتضمن تبادلا للآراء والأفكار والمشاعر، وتستهدف تحقيق قدر أكبر من الفهم والتفاهم بين الأطراف المشاركة؛ لتحقيق أهداف معينة، يسعى المشاركون في الحوار لإنجازها"(٢) وهو كذلك" عرض دراماتيكي في طبيعته لتبادل شفاهي بين شخصين أو أكثر"(٣)، و"إذا كان الحوار تجاوبا

(١) معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس، ط١، ١٩٨٦م، ص١٤٩،١٤٨.

٤١ الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه، د/ منى اللبودي، ط١، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٥م، ص١٩.

(٣) المصطلح السردي، جيرالد برنس، ترجمة عابد خزندار، مراجعة وتقديم محمد بربري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠، ص٥٩

بين الأضداد ..... سمي جدلا"[١]، وجميع هذه التعريفات تنطبق على حوار الهمذاني السردي في هذه المقامة، فهو حوار أدبي جدلي يمتاز بالسردية والبلاغة لكونه أدبيا، وبالجدلية لكونه حجاجيا يرد به البطل على مخالفه.

وعن أطراف الحوار في المقامة المارستانية نقول إنه قد وقع في صورته الظاهرة السطحية بين ثلاثة أطراف وهم: عيسى بن هشام/ السارد/ الراوي/ المعتزلي وصاحبه أبو داود المتكلم المعتزلي، وأبو الفتح الإسكندري المجنون/البطل/ السُّنِّيُّ، وقد دار أغلب الحوار بين طرفين اثنين هما عيسى بن هشام السارد/ المعتزلي وأبي الفتح البطل/ السُّنِّيِّ.

١ـ الحوار بين الراوي وصاحبه أبو داود المتكلم وهما الطرف الأول والبطل وهو الطرف الآخر، ولم تقع هذه الصورة إلا مرة واحدة، وذلك باجتماع الاثنين في الرد، ونصه" فَقالَ: إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ فَأَنْتُمْ غُرَباءُ، فَقُلْنَا: كَذلِكَ".

٢ـ الحوار الواقع بين الراوي وصاحبه المتكلم وهذا كما في قوله:" قَالَ: ياعِيسَى هَذا وَأَبِيكَ الحَدِيثُ، فَمَا الَّذي أَرَادَ بِالشَّيْطَانَةِ؟" وقوله:" فَقَالَ: مَا هَذا وَاللهِ إِلاَّ شَيْطَانٌ فِي أَشْطَانٍ" وهذا فيه أن البديع ترك مجالا للخصم ليفصح عما يكنه تجاه البطل، ويبين فيه عداوته لما يعتقده.

٢ـ الحوار بين الراوي والبطل، وهذه هي الصورة التالية للصورة الأولى في الظهور، ويتكفل الراوي فيها بالرد عن نفسه وعن أبي داود المتكلم، ومنها " فَقَالَ: مَنِ القَوْمُ للهِ أَبُوهُمْ؟ فَقُلْتُ: أَنَا عِيسَى ابْنُ هِشامٍ وَهَذَا أَبُو دَاوْدَ المُتَكَلِّمُ فَقالَ: العَسْكَرِيُّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ".

وكان الراوي عاجزا عن الرد على كلام البطل، وذلك لقوة حجته، ومثال هذا :" وَأَنْتَ يا ابْنَ هِشامٍ تُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُ بِبَعْضٍ؟ سَمِعْتُ أَنَّكَ افْتَرَشْتَ مِنهُمْ شَيْطَانَةً[٢]! أَلَمْ يَنْهَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَتَّخِذَ مِنْهُمْ بِطَانَةً؟. وَيْلَكَ هَلا؟ تَخَيَّرْتَ لِنُطْفَتِكَ، وَنَظَرْتَ لِعَقِبِكَ؟ "

٣ـ الحوار الذي يسيطر عليه البطل إلا أنه حوار منصف ويأتي على وجهين؛ الأول: يذكر فيه البطل مقولة المعتزلة ثم يردها، وذلك كما في قوله:" وَتَقُولونَ: خالِقُ الظُّلْمِ ظَالِمٌ! أَفَلا تَقُولُونَ: خَالِقُ الهُلْكَ هَالِكٌ؟ "، وكذلك في قوله:" وَتَقُولونَ: خُيِّرَ فَاخْتَارَ، وَكَلاَّ فَإِنَّ المُخْتارَ لاَ يُبْعَجُ بَطْنَهُ، وَلاَ يَفْقَأُ عَيْنُهُ وَلا يَرْمِى مِنْ حالِقِ ابْنَهُ، فَهَلِ الإِكْرَاهُ إِلاَّ مَا تَرَاهُ؟ وَالإِكْرَاهُ مَرَّةً بِالمَرَّةِ وَمَرَّةً بِالذِّرَّةِ. "

---

(١) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية،د/جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، لبنان، ١٩٧٩، ٥٠١/١.

(٢) إشارة إلى أنه اتخذ زوجة منهم.

والثاني: يعتمد على وصف حال المعتزلة عند سماعهم مسألة من المسائل التي لا تقبلها عقولهم، وهذا كما في النص التالي:" إِذَا سَمِعْتُمْ: " مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ " أَلْحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا " جَحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَقْطِفَ ثِمَارَهَا، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ حَتَّى اتَّقَيْتُ حَرَّهَا بِيَدِي " أَنْغَضْتُمْ رُؤُوسَكُمْ وَلَوَيْتُمْ أَعْنَاقَكُمْ "

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن "أبا الفتح/ البطل يستفز الآخر، لكنه لا يدع له فرصة الجواب، ولا يكون خطابه بريئا ، وإنما ذا قصد ووجهة نظر يسعى إلى الانتصار لها، ساعيا إلى فضح خطاب الآخر وهدمه والانتقاص منه"(١)، وإذا كنا نقر بأن البطل سعى إلى الانتصار لمذهبه ومعتقده وهدم معتقدات المعتزلة، إلا أنه قد أورد أقوالهم وأبطلها بالأدلة العقلية والنقلية وهم حضور، وإلا فلو كانوا يملكون ردا على حججه وأقيسته وأدلته النقلية لفعلوا، وبهذا لا يمكننا القول بأن البطل لم يدع لهم فرصة للرد.

وبعدُ، فهذه صور الحوار في المارستانية، وقد أدارها البديع على لسان السارد في المقامة، ولم نتطرق إلى تفاصيل الحوارات المذكورة لأننا هنا نحاول بيان كون الحوار السردي آلية من آليات الحجاج والإقناع ، ولعلنا هنا نطرح مجموعة من الأسئلة يكون الجواب عنها شارحا لحجاجية الحوار السردي في المارستانية فنقول:

- لماذا أدار الهمذاني الحوار على لسان السارد؟
- وهل تعمد الهمذاني هذا الأمر؟
- وما وجه حجاجية الحوار السردي في المارستانية؟

إن الجواب عن الأسئلة هذه حاضر فيما تنطق به طبيعة المقامات الهمذانية فالسارد دائما عليم بكل ما يدور حوله، فهو أديب مرة، وناقد مرة، وفقيه أخرى، مثله في ذلك مثل البطل، فطبيعته السردية وعلمه بالأشياء يكسبانه صفة الصدق، إضافة إلى يمتاز به من دقة وبراعة لغوية في سرد الأحداث والقدرة على إقناع المتلقي بها.

وإذا كانت الخصائص السابقة مما يمتاز به الراوي فهو أحق بالحوار مع البطل، وهذا ما تعمده الهمذاني في هذا النص فالسارد يكتسب صفة الصدق هنا خاصة لأنه يحكي شيئا أو

(١) مدخل إلى دراسة المتكلم في بعض مامات بديع الزمان الهمذاني: الموقع والوظائف، د/ بديعة الطاهري، أكادير/ المغرب، ص١٠٧.

حوارا هو طرف من أطرافه، وقد انتهى هذا الحوار بإبطال زعمه ودعواه من قِبَلِ المجنون، واعترافه بانتصار المجنون عليه في الحوار يكسبه تصديق أكثر عند المتلقي.

أما عن حجاجية الحوار السردي في المارستانية وكونه آلية من آليات الإقناع فنستطيع إرجاعها إلى ما يلي:

١- كون السارد عليما بالأحداث وطرفا من أطراف الحوار، وهو الطرف المغلوب، إلا أنه قد حكى هذه الغلبة، واعترف بها، وهذا الاعتراف إقرار منه بانتصار الآخر، وهذا يكسب السارد تصديقا عند المتلقي، وهذا يتضح لنا في نهاية المقامة بعدما أثبت المجنون صحة ما ذهب إليه بالأدلة في صورة بلاغية، وأبطل قول المعتزلة في المسائل نفسها، نرى قول السارد:" قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَبَقِيتُ وَبَقِي أَبُو دَاوُدَ لا نُحِيرُ جَوَاباً، وَرَجَعْنَا عَنْهُ بِشَرٍ وإِنِّي لأَعْرِفُ فِي أَبي دَاوُدَ انْكِسَاراً، حَتَّى إِذَا أَرَدْنَا الافْتِرَاقَ قَالَ: ياعِيسَى هَذا وَأَبِيكَ الحَدِيثُ" وهنا يبرز لنا السارد الأول/ الأصلي بديع الزمان الهمذاني، ولم يظهر في سرد غيره، على مدار المقامة، فهو هنا يحكي موقف عيسى بن هشام، ويثبت لنا أن الساردَيْنِ قد أقرا بانهزام المعتزلة، وقدرة المجنون على إبطال أقوالهم.

وهذا الظهور المفاجئ لبديع الزمان في نهاية المقامة يثبت لنا تعمده إدارة الحوار على لسان الراوي طيلة السرد، فإذا كنا قد وجدنا السارد/ الراوي صادقا في نقله للأحداث فإن ظهور الهمذاني هنا يؤكد صدق عيسى بن هشام ويجعله ـ أقصد الهمذاني ـ كالشاهد على قوله الداعم له، وهذا ما يزيد المتلقي ثقة فيما رُوي على مدار المقامة واقتناعا بحجج البطل/ المجنون، فالحوار الأدبي "إنما يمر عابرا إلى المتلقي الذي يكون في مثابة الشخص الثالث غير المرئي بين هذين الشخصين المتحاورين.."(١) ، وهذا ما أراده الهمذاني لحواره السردي بوصفه آلية من آليات الحجاج.

٢- كذلك فإن الحوار بصوره التي ذكرناها هو" الوسيلة الأساسية المتاحة لدى الشخصيات لتعبر من خلاله عن أفكارها ورؤاها ووعيها للعالم الذي تعيشه"(٢)، كذلك فإنه

(١) الحوار القصصي تقنياته وعلاقاته السردية، فاتح عبد السلام، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩م، ص١٤.

(٢) قضايا الفن القصصي ، د/يوسف نوفل (المذاهب ، اللغة، النماذج البشرية)، دار النهضة العربية،ط١، ١٩٧٧، ١٦٣

يمتاز" بقدرته الفائقة على عرض الشخصيات والأحداث بحيادية، فيتيح مجالا لتقديم معرفة مباشرة عن الشخصية"(١)

وإذا كان الحوار يمتاز وبكونه معبرا عن الشخصيات وحقيقة أفكارها ومعتقداتها فإنه يعد وسيلة وآلية من آليات الإقناع للمتلقي؛ لأن الشخصية عبر الحوار تُقرِّ بوضوح تام عما تحمله من أفكار، وبهذا يكون الحوار وثيقة إقرار من صاحبه بما يعتقده، وهذا ما يجعله مقبولا ومسلما به عند المتلقي.

ثانيًا: الوصف

يمثل الوصف في المقامة المارستانية عنصرا فاعلا في بنائها، وآلية حجاجية من آليات الإقناع فيها، والوصف بصفة عامة في الأعمال الأدبية" نشاط فني يمثل باللغة الأشياء والأشخاص والأمكنة وغيرها، وهو أسلوب من أساليب القصة يتخذ أشكالا لغوية كالمفردات والمركب النحوي والمقطع"(٢)، وهو كذلك" عرض وتقديم الأشياء والكائنات والوقائع والحوادث"(٣)، وعليه فالوصف يقع على عناصر بناء العمل الأدبي النثري أو الشعري فيشمل الأشخاص والزمان والمكان والأحداث وغيرها.

وقد وظفه الهمذاني بإيجاز شديد، وذلك باعتماده على المفردات، خاصة أن المقامة كما نعرف تعليمية في المقام الأول ولذا فهي بحاجة إلى الإيجاز والتكثيف.

ويمكننا أن نرى أن الهمذاني قد قدم وصفا لكل مما يأتي:

١ـ المكان وهو " يمثل مكونا محوريا في بنية السرد حيث لا يمكن تصور حكاية بدون مكان فلا وجود لأحداث خارجه "(٤) وهو في المقامة مارستان البصرة، وذلك حيث قال الراوي: " دَخَلْتُ مَارِسْتانَ البَصْرَةِ"، فوصف المكان هنا مقتصر على ما تحمله كلمة المارستان من دلالة

(١) جماليات التلقي في السرد القرآني، د/ يادكار لطيف الشهرزوري، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠١٠، ص٧٦، ٧٧.

(٢) معجم السرديات، محمد الخبو، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٠، ٤٧٢.

(٣) المصطلح السردي، ص٥٨.

(٤) بنية الوصف ووظائفه في رواية "الشمس في علبة" اهوارة سعيدة، رالة ماجستير، إعداد/ شتوي فاطمة الزهراء، قسم الأدب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر،

لغوية، حيث إنها تشير إلى "موضع أو مكان تداوى فيه المجانين"(١)، وهو كذلك " مَصحّة أو مستشفى أو دار المرضى ".(٢) ، وبالنظر في التعريفين نرى أن المارستان موضع للمداواة وعلاج المرضى مجانين كانوا أم غير مجانين، إلا أننا في المقامة نراها قد اختصت بالمجنون/ البطل، فما وجه حجاجية المارستان هنا وما آلية إقناعه للمتلقي؟

إن آلية المارستان/ المكان المهمش الحجاجية تكمن في كونه المكان الذي تدور فيه الأحداث وهو مكان قد خصه السارد بالمجانين فاقدي العقل، في الوقت الذي يتخذ فيه السارد نفسه العقل مصدرا لمعتقداته التي سيفندها له المجنون وهو عاجز عن الرد عليه أو مواجهته، وإذا كان المجنون مقيما في هذا المكان/ المارستان، وقد استطاع محاجة المتكلم/ المعتزلي وغَلَبَتَهُ، فحينها يكون وصف المكان المهمش هذا وسيلة من وسائل تبكيت الخصم وإسكاته لأن الغلبة التي لحقته إنما لحقته في هذا المكان. لكنه العقل، إذ إنها تعني والمكان " يمثل مكونا محوريا في بنية السرد حيث لا يمكن تصور حكاية بدون مكان فلا وجود لأحداث خارجه"(٣)

٢. الشخصيات

وهنا نرى وصفا مباشرا لشخصيتي الراوي وصاحبه فالمقامة تشهد باعتزالية عيسى بن هشام ضمنا وباعتزالية أبي داود تصريحا، وذلك في قوله" وَمَعِي أَبُو داوُدَ المُتَكَلِّمُ"، ووجه حجاجية وصفهما بالتكلم والاعتزال أنهما مع اتصفاهما بهذه الصفة وامتلاكهما أدواتها العقلية وأقيستها التي يستعملونها لإثبات مذهبهم العقدي إلا أنهما قد عجزا عن رد حجج المجنون والاعتراض عيه، والأصل أنهم إذا وصفوا بهذا الوصف كان جديرا بهم الدفاع عن آرائهم أمام المجنون، لكنهما بهذا الوصف كان سببا في إقناع المتلقي بضعف المعتزلة وعجزهم عن الرد على معتقد أهل السنة الذي نطق به البطل/ المجنون.

---

(١) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة ١٣٤٢ ـ ١٩٢٣م، مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بمصر، ص١٤٦. وانظر: مقامات الحريري، محمد عبده، ص١٤١. وانظر

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار عمر، ط١، عالم الكتب، ١٤٢٩ـ ٢٠٠٨م، ج٣، ص٢٠٣٠. وينطق بكسر الراء انظر: تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دوزي، نقله إلى العربية محمد سليم النعيمي و جمال الخياط، ط١، من ١٩٧٩ ـ ٢٠٠٠، وزارة الثقافة والغعلام العراق، ج١٠، ص٩.

(٣) بنية الوصف ووظائفه في رواية "الشمس في علبة" لهوارة سعيدة، رسالة ماجستير، إعداد/ شتوي فاطمة الزهراء، قسم الأدب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر،ص٢٣.

كذلك وصفهما بالغرباء، وهي صفة تحتمل الغربة المادية في الأبدان والمعنوية في الأفكار والمعتقدات، وذلك في قوله" فَقالَ: إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ فَأَنْتُمْ غُرَباءُ، فَقُلْنَا: كَذلِكَ" وقد أقرا بهذا الوصف، ووجه حجاجية وصفهما بالغرباء أنهما قد أقرًا بكونهما غرباء مع عجزهما عن الدفاع عما يعتقدانه على مدار المقامة فدل هذا بوضوح على أن ما أتوا به من معتقدات إنما هي غريبة لا تتفق مع النقل الصحيح ولا العقل الصريح ولا الحجج التي أتى بها البطل/ المجنون، ووصف المجنون لهم بالغرباء فيه توظيف لعادة من عادات العرب في كلامهم" فقد عُرِف في كلامهم عند الحكم بما فهموه من أصوات الطير وحركاته أن يقولوا: إن صدقت الطير كان كذا وكذا. ثم صار هذا القول مثلا في كل تفرس وحكم على الغيب بقوة الحدس"(١)، وبالفعل صدق حدس البطل/ المجنون فيما ذهب إليه، كما كشفت المقامة.

ويأتي بعد ذلك وصف البطل بالجنون، وهذا في قوله:" فَنَظَرْتُ إِلَى مَجْنُونٍ تَأْخُذُنِي عَيْنُهُ وَتَدَعُنِي" فهذا المجنون إنما هو مجنون على لسان السارد المعتزلي، والجنون في اللغة هو الاستتار، والمجنون هو من غاب عقله وسُتِر، وهذا يشهد أيضا بأن الهمذاني قد أتاح للسارد/ المتكلم/ المعتزلي/ العقلاني إطلاق وصف الجنون على خصمه السُّنِّيِّ الذي لا يُعمل عقله، وفي هذا تسفيه لمعتقدات أهل السنة وتقليل من قدرها، فالمعتزلة يرونهم مجانين، وهذه إشارة فنية بديعة من الهمذاني، ففي الوقت الذي وصف فيه المعتزلي خصمه السُّنِّيَّ بالجنون وهو وصف قد اختزل وجهة نظر المعتزلي في أن كل ما أتى به البطل/ المجنون إنما هو جنون وسفاهات لا يقبلها العقل المعتزلي، أقول في هذا الوقت جعل المجنون يأتي بأدلة نقلية وعقلية عجز خصمه المعتزلي عن ردها وتأويلها وصرفها بأي وجه من الوجوه، وهذا وجه حجاجية وصف البطل/ السُّنِّيِّ بالجنون. وهو وصف حجاجي بالمقام الأول، جعله

هذا، وقد أدى الوصف في المقامة مجموعة من الوظائف يمكننا بيانها من خلال حجاجية الوصف في الأمثلة التي ضُربت سابقا، ومن هذه الوظائف:

١ـ الوظيفة التفسيرية فقد كان الوصف الدقيق للشخصية من الراوي أو البطل كاشفا عما تحمله كل شخصية تجاه الأخرى، وهذه الوظيفة تقوم " بتفسير سلوك الشخصيات وأوضاعها

(١) مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد عبده، ص١٤١.

وعلاقاتها ... بما يساعد على تفسير بعض ما سلف من سماتها أو أعمالها أو أحوالها"(١)، وما ذكرناه من وصف للشخصيات وبيان وجه حجاجيته كاف لبيان وجود هذه الوظيفة في المقامة.

٢ـ الوظيفة الإخبارية ويكمن دورها "في تقديم معارف ومعلومات فهي لازمة لمتابعة السرد"(٢)، والصورة التي وردت عليها المعارف والمعلومات في المقامة هي معتقدات المعتزلة وما يناقضها عند أهل السنة، في مسألة خلق أفعال العباد، وإنكار الغيبيات، وغيرها.

٣ـ الوظيفة الحجاجية/ الإقناعية المؤثرة في المتلقي، فالوصف في المقامة كان موظفا لغرض حجاجي سعى من خلاله بديع الزمان إلى إثبات غلبة المعتقد السُّنِّي على المعتقد المعتزلي، ولإثبات امتلاك صاحبه القدرة على تفنيد آراء المعتزلة ودحضها بالأدلة النقلية والعقلية معا.

ثالثًا: الجمع بين الاستدلال العقلي والنقلي أو الجمع بين المذهب الكلامي والاقتباس

أما الاستدلال العقلي فهو أقرب ما يكون إلى المذهب الكلامي" وهو: أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكلام"(٣)، وأما الاستدلال النقلي فهو أقرب إلى الاقتباس" وهو: أن يضمن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث، لا على أنه منه"(٤).

ولقد آثرت هنا الجمع بين هاتين الآليتين لسببين؛ أحدهما: أن الهمذاني في أغلب المواضع كان يجمع بينهما في الرد على شبهات المتكلمين/ المعتزلة، ويسوق أدلته النقلية والعقلية بصورة مسجوعة. والآخر: أن هذه الطريقة في الجمع بينهما ستحافظ على أوصال المقامة ولن تقطعها، وهذه الطريقة ستمكننا من النظر إلى المسألة بكمالها دون قطع أوصالها.

وقد استخدم الهمذاني هذه الآلية في الرد على ما ذهب إليه المتكلمون/المعتزلة في بعض المسائل، وهي:

١ـ قولهم بأن العبد مختار مطلقا ولا دخل لإرادة الله في إرادته(١)

(١) طرائق تحليل القصة، الصادق قسومة، د.ط، دار الجنوب للنشر، تونس، ٢٠٠٠م، ص٢٠٧.

(٢) السابق، ص٢٠٧.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، د.ط، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٩م ـ ١٤٣٠ه.، ص٣٦٠.

(٤) السابق، ص٤٠٦.

ويقصدون بها أن العبد خالق فعل نفسه في الخير والشر، وأن الله لا إرادة له في خلق أفعالهم ولا مشيئة، وهذه المسألة تقع تحت الأصل الثاني من أصول المعتزلة القدرية وهو العدل.

وقد ساق المجنون/ البطل في المارستانية ردا حجاجيا عقليا ونقليا على هذه المسألة عندهم بقوله:" إِنَّ الخَيْرَةَ للهِ لا لِعَبْدِهِ(٢)، وَالأُمُورَ بِيَدِ اللهِ لا بِيَدِهِ، وَأَنْتُمْ يا مَجُوسَ هذِهِ الأُمَّةِ(٣) تَعِيشُونَ جَبْراً(٤)، وَتَمُوتُونَ صَبْراً، وَتُسَاقُونَ إِلى المَقْدُورِ قَهْراً، وَلَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذينَ كُتِبَ عَلَيْهِم القَتْلُ إِلى مَضَاجِعِهِمْ، أَفَلا تُنْصِفُونَ، إِنْ كَانَ الأَمْرُ كَمَا تَصِفُونَ؟"

فالمجنون هنا يرد عليهم نافيا قولهم مثبتا ومقررا أن الأمور كلها بيد الله لابيد العبد، فهم يولدون بغير اختيارهم، ويموتون بغير اختيارهم، ويريدون فعل بعض الأشياء لكنهم ينتقلون إلى فعل غيرهم رغما عنهم وهم مقهورون، وجميع هذه الاستدلالات إنما هي علية استطاع بها المجنون الرد على ما يذهب إليه الراوي وصاحبه، وقد نجح الهمذاني في صياغته بلفظ حسن مسجوع في قوله (لعبده، بيده، جبرا، صبرا، قهرا). وذهب البلاغيون إلى أن " لا يحسن السجع إلا إذا كانت المفردات رشيقة، والألفاظ خدم المعاني، ودلت كل من القرينتين على معنى غير ما دلت عليه الأخرى، وحينئذ يكون حلية ظاهرة في الكلام، والسجع موطنه النثر، وقد يجيء في الشعر "(٥)

كذلك استدل المجنون/ البطل ـ بعد استدلاله بالدليل العقلي السابق ـ بدليل نقلي من القرآن العظيم، موظفا الاقتباس توظيفا حاسما؛ لأن الدليل الذي أتى به إنما هو حجة قاطعة

---

(١) في تقرير هذه المسألة والسائل التالية يُنظر: شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، تحقيق د/ عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة ـ القاهرة، ط١، ١٣٨٤ه ـ ١٩٦٥م،، ص٣٤٥ ، وغيرها.

(٢) اعتراض على قول المعتزلة إن العبد خالق لأفعاله خيرها وشرها.

(٣) إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم القدرية مجوس هذه الأمة ، وهم المنكرون للقدر.

(٤) احتجاج عليهم بأنهم ولدوا بغير اختيارهم ويموتون رغما عنهم فكيف يكونون مخيرين؟

(٥) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، ضبط وتدقيق د/ يوسف الصميلي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٣٣١. وهذا نص الهاشمي، وقد أخذه عن الشرائط الأربع التي اشترطها ابن الأثير لجودة السجع: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تقديم وتعليق د/ أحمد الحوفي ود/ بدوي طبانة، القسم الأول، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة ـ القاهرة، ص٢١٥.

تثبت صحة ما ذهب إليه وبطلان ما ذهبوا إليه، وهو قوله تعالى:" لَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذينَ كُتِبَ عَلَيْهِم القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِمْ" ومراد الآية أن الجبن والقعود في البيوت لا يطول أجلا، فلو كان هؤلاء في بيوتهم حذرين من الموت وقد قُدِّر لهم الموت لبرزوا إلى مواضع قتلهم.

٢ـ قولهم بأن إضافة خلق أفعال العباد إلى الله يستلزم كونه خالقا للظلم

والمعروف أن المعتزلة يستدلون على أن الله لا يخلق أفعال العباد، بقولهم السابق هذا، لكن المجنون سيتكفل بالرد عليهم، كما يلي:

لقد أورد البطل/ المجنون قولهم كما يلي:" وَتَقُولونَ: خالِقُ الظُلْمِ ظَالِمٌ!(١) أَفَلا تَقُولُونَ: خَالِقُ الهُلْكَ هَالِكٌ؟" ثم رد قولهم هنا بالقياس العقلي، فهم يقولون إن الظلم يقع من بعض العباد ولو كان الله خالقا فعالهم لكان خالقا للظلم ولكان ظالما، فرد عليهم المجنون بقوله قياسا على ما ذكروه بأن الله خالق للهلك يعني زوال العالم عند قيام الساعة ولو كان خالقا للهلك لهلك هو أيضا ولو صح استدلالكم لصح هذا الاستدلال أيضا، فما نطقوا جوابا، والحجاجية هنا واضحة تماما بالقياس العقلي التام.

٣ـ إنكارهم تقدير الله الغواية لبعض خلقه كإبليس

ونص هذه المسألة في المقامة" أَتَعْلَمُونَ يَقِيناً، أَنَّكُمْ أَخْبَثُ مِنْ إبْليسَ دِيناً؟ قَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَني، فَأَقَرَّ وَأَنْكَرْتُمْ وَآمَنَ وَكَفَرْتُمْ، " فالمعتزلة ينكرون أن الله قدَّر غواية إبليس وقياسا عليها غواية بعض البشر، لكن المجنون هنا ينقض قول المعتزلة باقتباسه النص القرآني " رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَني" دليلا نقليا يبطل به قول المعتزلة، فإبليس وهو شر الفريقين قد أقر بإغواء الله له، وأقر بإيكال الأمر كله لله وإسناده له أما أنتم فلا، وهنا وظف الهمذاني المحسن المعنوي/ الطباق توظيفا حسنا يقرر به صحة ما ذهب إليه إذ إنه أثبت إقرار إبليس وإيمانه بتقدير الله لغوايته في الوقت الذي أنكرت فيه المعتزلة هذه المسألة، وعلى الطريقة نفسها كان السجع.

وعلى شاكلة هذه المسألة يأتي قوله في المقامة:" إِذَا سَمِعْتُمْ: " مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ " أَلْحَدْتُمْ.

٤ـ قولهم أن الله عرض الأفعال على عبده فاختار لنفسه الأعمال التي سار عليها.

وهذه المسألة هي الواردة في قول المجنون/ البطل:" وَتَقُولونَ: خُيِّرَ فَاخْتَارَ، وَكَلاَّ فَإِنَّ المُخْتارَ لاَ يُبْعَجُ بَطْنَهُ، وَلاَ يَفْقَأُ عَيْنُهُ وَلا يَرْمِى مِنْ حالِقِ ابْنَهُ، فَهَلِ الإِكْرَاهُ إلاَّ مَا تَرَاهُ؟ وَالإِكْرَاهُ

(١) يعتقد المعتزلة أن الرب تعالى منزه عن أن يضاف إليه شر وظلم، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما فلو صح ذلك لوجب أن يكون هالكا لأنه خالق الهلاك.

مَرَّةً بِالمَرَّةِ وَمَرَّةً بِالدِّرَّةِ. فقد عرض قولهم رادًّا عليهم دعواهم هذه ومبطلا إياها بالاستدلال العقلي، فبين لهم أن صاحب الاختيار المطلق هذا لا يفعل إلا ما هو محبب للنفس، ولا يقع منه شيئا تكرهه نفسه، لكننا نرى من الناس من تقع منه بعض الأمور التي لا يفعلها إنسان إلا حال كونه مكرَها إكراها ماديا أو معنويا، كأن يشق بطنه، أو يفقأ عينه، أو يلقي ابنه من مكان مرتفع فيموت، فلو كان مختارا كما زعمتم لما فعل هذه الأشياء المذكورة، وهذا استدلال عقلي لا رد عليه عند المعتزلة. وقد ساق البطل هذا الاستدلال بسجع مرصع في قوله (بطنه، عينه، ابنه، الإكراه، تراه، المِرَّة، الدِّرَّة" وهو سجع يمتاز بشرائطه الحسنة التي تجعل المتلقي ينتبه إلى معانيه المتفاوتة فيزداد اقتناعا بالدليل الذي يسمعه.

٥- إنكارهم السمعيات

والمقصود بالسمعيات نصوص الكتاب والسنة التي تناولت بعض الغيبيات، والتي أنكرها المعتزلة بزعمهم عدم موافقتها لعقولهم، علما بأن هذه المسائل لو تأملها الإنسان تأملا دقيقا لوجدها محققة بأدلة الشرع والعقل والحس، وقد وردت هذه المسائل في قوله:" فَلْيُخْزِكُمْ أَنَّ القُرْآنَ بَغِيضُكُمْ، وَأَنَّ الحَدِيثَ يَغِيظُكُمْ، إِذَا سَمِعْتُمْ: " مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ " أَلْحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا " جَحَدْتُمْ وَإِذَا سَمِعْتُمْ: " عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَقْطِفَ ثِمَارَهَا، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ حَتَّى اتَّقَيْتُ حَرَّهَا بِيَدِي " أَنْغَضْتُمْ(١) رُؤُوسَكُمْ وَلَوَيْتُمْ أَعْنَاقَكُمْ وَإِنْ قِيلَ: " عَذابُ القَبْرِ " تَطَيَّرْتُم، وَإِنْ قيلَ: " الصِّراطُ " تَغَامَزْتُمْ وَإِنْ ذُكِرَ المِيزَانُ قُلْتُمْ: مِنَ الفِرْغِ كِفَّتَاهُ، وَإِنْ ذُكِرَ الكِتابُ قُلْتُمْ: مِنَ القِدِّ دَفَّتَاهُ،"

وهذا النص يشمل مسألة القدر، والإيمان بأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى مشارق الأرض ومغاربها في حادثة الإسراء والمعراج والمعتزلة ينكرونها مع ثبوت أحاديثها، والإيمان بكون الجنة والنار مخلوقتين وموجودتين، والإيمان بعذاب القبر، والصراط، والميزان وبأنه حسي وليس معنويا، وبأن القرآن كلام الله على الحقيقة وليس خلقا من خلقه، كما يقول المتكلمون/ المعتزلة.

هذا، وقد احتج المجنون على المعتزلة في هذه المسائل بنوعي الاستدلال؛ أما الأول فهو الاستدلال العقلي في قوله:" فَلْيُخْزِكُمْ أَنَّ القُرْآنَ بَغِيضُكُمْ، وَأَنَّ الحَدِيثَ يَغِيظُكُمْ" فاحتج عليهم بأنهم يبغضون القرآن والسنة ونصوصهما؛ لأنها لا توافق عقولهم، ولهذا أتاهم بالأدلة النقلية المذكورة بعدها، ولو كانوا حقا يؤمنون بنصوصهما لاعتقدوا ما في هذه النصوص، ولهذا نقول احتج

(١) النغض: تحريك الرأس.

عليهم بالدليل العقلي ليلزمهم بالدليل النقلي(١) فلو كانوا يؤمنون حقا بالنصوص الثابتة ما كانوا ليردوها بأي وجه من الوجوه، وهذا ما يمثله المذهب الكلامي.

وأما الاستدلال النقلي فباقتباس الأدلة من نصوص الكتاب والسنة، وذلك إلزاما لهم وتبكيتا حتى لا يردوا جوابا، وهذا ما نراه في الآية والحديثين، فالآية قوله تعالى:" من يُضلل الله فلا هادي له"(٢)، والحديث الأول هو قول النبي صلى الله عليه وسلم:" " زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا" والحديث الثاني قول النبي صلى الله عليه وسلم:" " عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَقْطِفَ ثِمَارَهَا، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ حَتَّى اتَّقَيْتُ حَرَّهَا بِيَدِي "

ومع هذين الاستدلالين وظف البديع الهمذاني السجع ليكشف للمتلقي عن أحوال المعتزلة عند سماعهم نصوص الكتاب والسنة التي لا توافق عقولهم، فمرة يلحدون، ومرة يجحدون، وأخرى ينغضون رؤوسهم، ومرة يتطيرون، وأخرى يتغامزون،.... وهذا ما نراه في الأسجاع التالية :" ألحدتم، جحدتم، أنغضتم رؤوسكم، ولويتم أعناقكم، تطيرتم، تغامزتم، كِفَّتاه، دَفَّتاه".

وهذه الأسجاع عند تأملها يمكننا القول بأن الهمذاني اقتبسها من القرآن الكريم كذلك، وهو ما نراه في قول الله تعالى :" إنَّ الذين يلحدون في آياتنا لا يَخفَوْنَ علينا"(٣)، وقوله :"... ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون"(٤)، وقوله:" فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا"(٥) ، وقوله:" وإنَّ منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب"(٦)، وقوله:" وإن تصبهم سيئة يطَّيَّروا بموسى ومن معه"(٧)، وقوله:" وإذا مرُّوا بهم يتغامزون"(٨).

وتجدر هنا الإشارة إلى أن الهمذاني قد وظف السجع الذي بُنيت عليه المقامة توظيفا حسنا عاملا بقول البلاغيين:" لا يحسن السجع إلا إذا كانت المفردات رشيقة، والألفاظ خدم

---

(١) والمعنى أن القرآن بغيضكم فأنتم لا تقبلون النصوص، ولو كنتم تحبون القرآن وتؤمنون به لآمنتم بالنصوص، وكذلك الحديث، وهذا فيما لا يتفق مع عقولهم.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٦.

(٣) سورة فصلت: ٤٠.

(٤) الأنعام:٣٣.

(٥) الإسراء :٥١.

(٦) آل عمران: ٧٨.

(٧) الأعراف : ١٣١.

(٨) المطففين: ٣٠.

المعاني، ودلت كل من القرينتين على معنى غير ما دلت عليه الأخرى، وحينئذ يكون حلية ظاهرة في الكلام، والسجع موطنه النثر، وقد يجيء في الشعر"(١)، وهذا ما التزمه الهمذاني في نص المقامة نثرها كما قدمناه، وشعرها كما في قوله في نهاية المقامة:

أَنَا يَنْبُوعُ العَجَائِبْ ... فِي احْتِيَالِي ذُو مَرَاتِبْ
أَنَا فِي الحَقِّ سَنَامٌ ... أَنَا في البَاطِلِ غَارِبْ
أَنَا إِسْكَنْـــدَرُ دَارِي ... فِي بِلادِ اللهِ سَارِبْ
أَغْتَدِي فِي الدَّيْرِ قِسِّيساً، وَفي المَسْجِدِ رَاهِبْ.

ولعلنا نقرأ في هذه المنظومة القصيرة المسجوعة محاولة لإقناع المتلقي بكل ما صدر عن المجنون/ البطل من ردود على المعتزلة، ذلك أنه وظف ضمير المتكلم ظاهرا كان أم مستترا توظيفا كاملا على مدار النص الشعري؛ ليثبت حضوره الدائم وقدرته على بيان الحق وتفنيد الشبه مهما كانت، كذلك فإن بناء هذا الشعر على المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية يعد وسيلة أخرى لإقناع المتلقي فـ " مدار الحسن البلاغي في فنون البديع كافة ، هو ما لها من خصوصية التأثير النفسي ؛ لأن كلا منها يرمي إلى إثارة المخاطب ذهنيا وفكريا، مع اختلاف في طبيعة تلك الإثارة، فهي إما صوتية أو تركيبية أو دلالية" (٢)، وبهذا يتبين لنا أن المحسنات اللفظية والمعنوية غير مقصورة على التحسين والتزيين فحسب، لكنها تملك وظائف جمالية يمكن " استخلاصها من تحليل النصوص ذاتها، مع استبعاد فكرة "البديع" ومصطلحه باعتباره زينة تضاف للكلام؛ لأنها أبنية يتركب منها هذا الكلام ذاته، ليحل محلها التصور البنيوي عن تداخل المستويات اللغوية فإذا كانت تستثمر مثلا جانبا صوتيا مثل الجناس، فإن درجة كفاءتها في هذا الصدد لا تقاس بكثرة الحروف المتجانسة في العبارة، بقدر ما تقاس بمدى ما ينتج ذلك من تأثير

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، ضبط وتدقيق د/ يوسف الصميلي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٣٣١. وهذا نص الهاشمي، وقد أخذه عن الشرائط الأربع التي اشترطها ابن الأثير لجودة السجع: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تقديم وتعليق د/ أحمد الحوفي ود/ بدوي طبانة، القسم الأول، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة ـ القاهرة، ص٢١٥.

(٢) مقاييس البلاغة بين العلماء والأدباء، د/ حامد صالح خلف الربيعي، جامعة أم القرى، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م، ص٧٠١.

دلالي"(١)، وإذا تأملنا هذه الوظائف في نص المقامة هنا على سبيل المثال لا الحصر، وجدنا من بينها الوظيفة الحجاجية التي تجمع بين الإقناع والتأثير، كما مرَّ سابقًا.

ويأتي توظيف الكناية في قوله" وَإِنْ ذُكِرَ المِيزَانُ قُلْتُمْ: مِنَ الفِرْغِ كِفَّتَاهُ، وَإِنْ ذُكِرَ الكِتابُ قُلْتُمْ: مِنَ القِدِّ دَفَّتَاهُ،" فأولهما كناية عن كون الميزان معنويا كما هو قول المعتزلة وليس حسيا كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وثانيهما كناية عن أن القرآن حادث مخلوق كما هو قول المعتزلة وليس صفة من صفات الله تعالى على الحقيقية كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وهذه الكنايات بمعرفة دلالتها عند المعتزلة وأهل السنة تكون آلية حجاجية للبطل في رد كلام المعتزلة؛ لأنه كما مضى قد وصفهم بأن القرآن بغيضهم لأنهم لا يقبلون نصوصه، ولو كان الأمر غير ذلك لقبلوها، لكنهم لا يفعلون.

رابعًا: الاكتفاء بالدليل النقلي/ الاقتباس لإقامة الحجة على المتكلمة

وهنا يبقى الاقتباس آلية فاعلة بمفرده لإبطال آراء المعتزلة وأقوالهم، فبعدما جمع الهمذاني بين الدليلين لإبطال دعاوى المعتزلة، أفرد هنا الدليل النقلي ليبين لهم أنهم يَؤُولون باعتقاداتهم وأقوالهم إلى ما ستنطق به الأدلة المقتبسة، وهذا كما في قول البطل/ المجنون:" يَا أَعْدَاءَ الكِتابِ وَالحْديثِ، بِماذَا تَطَيَّرُونَ؟ أَباللهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ تَسْتَهْزِئُونَ؟" وقد اقتبسها من قول الله تعالى:" ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون"(٢)، ففي هذه الآية إقامة للحجة عليهم من طرف المجنون، ذلك لأنهم أنكروا ما أنكوا من القَدر، وبعض مسائل الغيبيات التي ورد ذكرها فيما مضى.

وكذلك في توجيه المجنون خطابه إلى عيسى بن هشام بعد التفاته إليه قائلا له :" وَأَنْتَ يا ابْنَ هِشامٍ تُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُ بِبَعْضٍ؟ " فهذا اقتباس من قوله تعالى:" أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون "(٣)، وهذا فيه بيان ما يجب على المعتزلة اعتقاده من ضرورة الإيمان بالنصوص كلها، وعدم أخذ ما يناسب عقولهم وترك ما لا

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص، د/ صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٦٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت، ١٩٩٢م، ص١٦٢.

(٢) التوبة : ٦٥.

(٣) البقرة: ٨٥.

يناسبها، ذلك لأن العقوبة المترتبة على هذا الفعل دنيوية وأخروية كما بيَّن الله الذي أنزل الكتاب والنصوص في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا كله في إلزام للمعتزلة بوجوب الإيمان بالنصوص كلها.

والمتأمل في الآليات التي أوردها المجنون/ البطل في المارستانية يراها حجاجية مصبوغة بصبغة بلاغية لفظية ومعنوية لا تخفى على الناظر، هذا إضافة إلى براعته في الانتقال من مسألة إلى أخرى، فبعدما انتهى من بيان ما يتعلق بمسألة أفعال العباد واختيارهم وذكر إقرار إبليس بتقدير الإغواء له انتقل إلى السمعيات ليلزمهم بأن ما قد صاروا إلى إنكاره من النصوص إنما هو قدر قدَّره الله، ووجب عليه للإيمان به أن يؤمنوا بهذه النصوص، فبدأ الاحتجاج عليهم بالجمع بين النقلي والعقلي، ثم أفرد النقلي ليلزمهم به وليقيم الحجة عليهم.

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة الكشف عن الحجاج البلاغي وآلياته في نقد العقل المعتزلي متخذة من المقامة المارستانية نموذجا لها، وقد أسفرت عن مجموعة من النتائج بيانها على النحو التالي:

١ـ براعة بديع الزمان الهمذاني في ضبط اصطلاحاته بما يتفق مع الدلالة اللغوية، وذلك في إطلاقه لفظ المقامة على روائعه النثرية، وعدم تسميتها حكاية أو قصة، وفي هذا دلالة على عنايته بالدلالة اللغوية المعروفة عناية شديدة.

٢ـ للمقامة عناصر بناء أربعة لا يمكن قيامها بدونها وهي: المؤلف والبطل والراوية والقصة بزمانها ومكانها.

٣ـ يمكننا تعريف الحجاج البلاغي بأنه " الحوار القائم على استخدام الأدلة العقلية والنقلية واللغوية بين المتحاجَّيْنِ، بتوظيف آليات البلاغة المختلفة؛ لإثبات الحقيقة التي يريد المُحاجُّ إثباتها؛ بغية الإبانة والإقناع والتأثير في المتلقي".

٤ـ إذا كان الحجاج وسيلة من وسائل حفظ الحكمة/ الفلسفة وصيانتها عما يدنسها كما يرى أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان، فإن الحجاج البلاغي وسيلة لصيانة العقائد الدينية عند بديع الزمان الهمذاني وغيره من البلاغيين العرب.

٥ـ للحجاج البلاغي في المقامة المارستانية آليات عديدة منها ما أشار إليه التراثيون في كتاباتهم ومنها ما أشارت إليه الدراسات الحديثة، وقد تمثلت هذه الآليات في أربعة أشياء هي: الحوار السردي، والوصف، والجمع بين الاستدلال العقلي والنقلي أو الجمع بين المذهب الكلامي والاقتباس، والاكتفاء بالدليل النقلي/ الاقتباس لإقامة الحجة على المتكلمين.

٦ـ إذا كان الحوار يمتاز بكونه معبرا عن الشخصيات وحقيقة أفكارها ومعتقداتها فإنه يعد وسيلة وآلية من آليات الإقناع للمتلقي؛ لأن الشخصية عبر الحوار تُقرِّ بوضوح تام عما تحمله من أفكار، وبهذا يكون الحوار وثيقة إقرار من صاحبه بما يعتقده، وهذا ما يجعله مقبولا ومسلما به عند المتلقي.

٧ـ للوصف وظيفة حجاجية/ إقناعية مؤثرة في المتلقي، فقد كان الوصف في المقامة موظفا لغرض حجاجي سعى من خلاله بديع الزمان إلى إثبات غلبة المعتقد السُّنِّي على المعتقد المعتزلي، ولإثبات امتلاك صاحبه القدرة على تفنيد آراء المعتزلة ودحضها بالأدلة النقلية والعقلية معا.

٨- للمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية وظيفة حجاجية تكمن في قدرتها على إيصال المعاني المرادة بلفظ حسن تقبله الأسماع وتألفه القلوب وتفهمه العقول.

المصادر والمراجع

مصدر الدراسة

١- مقامات بديع الزمان الهمذاني أبي الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى المتوفى سنة ٣٩٨هـ، قدم لها وشرح غوامضها الإمام العلامة الشيخ محمد عبده، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م.

٢- مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م، مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية، مصر.

مراجع الدراسة

٣- الآليات الحجاجية البلاغية في رباعيات عمر الخيام، رسالة ماجستير إعداد أسماء يسعد ولامية مقرع، قسم اللغة والأدب العرب، كلية الآداب واللغات، جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي، الجزائر.

٤- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، د. ط، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ.

٥- بلاغة الخطاب وعلم النص، د/ صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٦٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، ١٩٩٢م.

٦- بنية الوصف ووظائفه في رواية "الشمس في علبة" هوارة سعيدة، رسالة ماجستير، إعداد/ شتوي فاطمة الزهراء، قسم الأدب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر.

٧- تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، الجزء الأول، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٨- تصدي الهمذاني للخطاب الاعتزالي قراءة في مسألة الجبر والاختيار، أ.د/ رشيد حليم، بحث منشور بمجلة الباحث، العدد ١٧.

٩- التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٠- تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دوزي، نقله إلى العربية محمد سليم النعيمي وجمال الخياط، ط١، من ١٩٧٩ - ٢٠٠٠م، وزارة الثقافة والإعلام العراق.

١١. جماليات التلقي في السرد القرآني، د/ يادكار لطيف الشهرزوري، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠١٠م.

١٢- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، ضبط وتدقيق د/ يوسف الصميلي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت، ١٩٩٩م.

١٣- الحجاج في الخطابة، عبد الواحد بن السيد، مجلة فصول، المجلد(١/٢٦)، العدد(١٠١)، خريف ٢٠١٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٤- الحجاج في اللغة والبلاغة "ديكرو وبيرلمان أنموذجًا"، د/ أبو بكر العزاوي، مجلة فصول، المجلد(١/٢٦) العدد(١٠١)،خريف ٢٠١٧.

١٥- الحوار القصصي تقنياته وعلاقاته السردية، فاتح عبد السلام، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩م.

١٦- حوار حول الحجاج، د/أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٠م.

١٧- الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه، د/ منى اللبودي، ط١، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٥م.

١٨- شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، تحقيق د/ عبد الكريم عثمان، ط١، مكتبة وهبة . القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.

١٩- طرائق تحليل القصة، الصادق قسومة، د.ط، دار الجنوب للنشر، تونس، ٢٠٠٠م.

٢٠- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة(ت٦٦٨هـ)، تحقيق د/ نزار رضا، د.ط، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

٢١- فن القصة والمقامة، د/ محمد جميل سلطان، منشورات جمعية التمدن الإسلامي، مطبعة الترقي، ١٣٦٢ هـ، ١٩٤٣م.

٢٢- قضايا الفن القصصي ، د/يوسف نوفل (المذاهب ، اللغة، النماذج البشرية)، ط١، دار النهضة العربية، ، ١٩٧٧م.

٢٣- كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد الباجي، تحقيق عبد المجيد تركي، ط٣، دار الغرب الإسلامي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠١م.

٢٤- لسان العرب، ابن منظور، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.

٢٥- مدخل إلى دراسة المتكلم في بعض مقامات بديع الزمان الهمذاني: الموقع والوظائف، د/ بديعة الطاهري، أكادير/ المغرب.

٢٦- المصطلح السردي، جيرالد برنس، ترجمة عابد خزندار، مراجعة وتقديم محمد بربري، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢٧- معجم السرديات، محمد الخبو، دار محمد علي للنشر، ط١، تونس، ٢٠١٠م.

٢٨- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، مصر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٢٩- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، د/جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، لبنان، ١٩٧٩م.

٣٠- معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار عمر، ط١، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٣١- معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس، ط١، ١٩٨٦م.

٣٢- مفهوم الحجاج في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، د/ لمهابة محفوظ ميارة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.

٣٣- المقامة، د/شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف، مصر ، ١٩٥٤م.

٣٤- مقاييس البلاغة بين العلماء والأدباء، د/ حامد صالح خلف الربيعي، جامعة أم القرى، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م.

٣٥- مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.

٣٦- من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، د/ جميل حمداوي، د.ط، أفريقيا الشرق، المغرب.

٣٧- النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، ط٩، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٠م.

٣٨- النقد الأدبي عند الإغريق والرومان، د/ عبد المعطي شعراوي، د. ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩م.

٣٩- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تقديم وتعليق د/أحمد الحوفي ود/ بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة - القاهرة.